- 2 -

أيل تدهمه الأضواء

ألقيت نظرتي الأولى على ما بات يعرف «بمدينة الزمرد» بعد يومين من إطاحة دبابة أمريكية بتمثــال صدام الضخم أمام فندق فلسطين. عبرت جسر الجمهورية سيــراً علــى الأقدام، ماراً بعربــات مدمرة، وحمــار نافق، قبل ولوج بوابــة السفاح. تمركــزت دبابة عند المدخل، لتســوي بوابته الحديدية بالأرض، بينما اتجه مدفعها نحــو الخارج، فــي إشارة واضحة إلــى عدم السمــاح بنهب ما في الداخـل. أبرزت التصريــح الذي أحمله، ليلوح قائد الدبابة سامحاً لــي بالمرور، قبل أن ينبهني إلى طول مسافة المسير.

لمحت، ما إن ابتعدت عن الدبابة مسافة مئة متر، رجلين أشعثين أثناء خروجهما من إحدى الفيلات، وهما يحملان ما خف وزنه وغلا ثمنه. كانا جريئين بالفعل، وقد دخلا المنطقة خلسة، أو عبر تسلق أحد الجدران التي ما كان يجرؤ أحد على اختلاس النظــر مــن فوقها قبــل أسبوع من الزمن. عرفتــي أكبرهما عن نفســه، حين مضيت صوبهما، قائلاً إنه مزارع من الكوت؛ المدينة الواقعة جنوب شرق بغداد، يدعى أحمد محسن. تبعته إلى داخل الفيلا، لنجد إحدى طاولات البليارد الثمينة، وأبواب مذهبة، وأرضيات رخامية.

تحــدث أحمد باستياء قائلاً: «نسكــن بيوتاً من الطين، ونفتقر إلــى المياه. تتسم حياتنا بالبؤس، بينما يعيش هو هكذا؟!».

لم أخبره أن تلك الفيلا لم تكن منزل صدام، وأنه قطن ما هو أفخم منها وأكبر.

تابعــت تقدمي، ماراً بما دمرتــه الترسانة الأمريكية من أبنية، وغص من الشوارع بفوارغ الطلقات والقذائف، وأزكمت رائحته الأنوف من الجثث المتحللة عند السواتر.

لفتت بطاقة تعريفية ممزقة أنظاري عند أحد الأرصفة. كانت تخص مقاتلاً في الحرس الجمهوري. صادفت مفكرة صغيرة ملقاة على الأرض. التقطها صديق عراقي قبل أن يشرع في تصفحها. صرخ -بينما كان يقرؤها- قائلاً: «هذا محض هراء. يمجد كل ما كتب فيها صداماً».

تمركزت مجموعة من الجنود عند القصر لصد أكثر الناهبين إصراراً. اطلع أحدهم على ما أحمله من تصاريح، قبل استدعاء رئيسه الملازم الشاب، خريج كلية ويست بوينت العسكرية، جو بيبرز. كان الارتياح بادياً على ملامح الأخير بالنظر إلى قضاء حاجته في الحمام -للمرة الأولى منذ انطلاق السباق إلى بغداد قبل ثلاثة أسابيع- عوضاً عن حفرة في الصحراء. تحدث قائلاً: «ليس أي حمام. لقد كان أحد حمامات صدام المذهبة!». عرض على الرجل، فيما بعد، القيام بجولة في القصر.

سبق لي زيارة أحد قصور صدام من قبل. كان وزير الإعلام العراقي قد وجه الدعوة، قبل وقوع الحرب بأربعة أشهر، إلى صحفيين أجانب لزيارة أحد قصور صدام الصغيرة، في أعقاب زيارة مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة القصر ذاته بصورة مفاجئة، دون العثور على أي منها. تمثل الهدف من الجولة في الاستهزاء بالمفتشين. أذكر أنني رأيت مضرباً بلاستيكياً أخضر، يستخدم لقتل الذباب، معروضاً على رف خشبي فوق إحدى الطاولات، متوقعاً رؤية المزيد مما ينم عن انعدام الذوق في القصر الجمهوري.

دفع بيبرز أحد الأبواب الضخمة المذهبة، قبل أن يدعوني إلى الداخل، ويضيء مصباحه الكاشف. كانت الكهرباء مقطوعة في القصر، كما في بقية أنحاء بغداد. استلزم الأمر بضعة أيام قبل أن يكتشف المهندسون الأمريكيون مولدات الكهرباء الضخمة التي حرص صدام على تزويد قصره بها، ليستقل عن شبكة البلاد المهترئة.

استنرت بالضوء المنبعث عن مصباح بيبرز، متبعاً إرشاداته بشأن ما يمكن أن يعترض طريقي من درجات وركام. كان الزجاج المحطم، الذي يغطي الأرضية الرخامية المتربة، يتهشم تحت أقدامنا. أسهم القصف الأمريكي المكثف في تحطيم

النوافـذ كافة في بداية الحرب، مما جعل من القصر مرتعاً لأتربة الصحراء. شعرت وكأنني أدخل قلعة من العصور الوسطى، مهجورة منذ عشرات السنين.

خاطبني بيبرز قائلاً: «خمن عدد الغرف الموجودة هنا».

أجبته قائلاً: «آه، لا أدري. ربما مئة؟».

عقب قائلاً: «بل مئتين وثمانٍ وخمسين. هل تصدق ذلك؟».

كان الرجل قد أرسل أحد جنوده لعد الغرف، وقد استغرقه ذلك ساعة من الزمن.

بـدا كل شـيء ضخماً. توقفنا في بادئ الأمر عند قاعـة الرقص التي كانت تعادل ملعـب كرة قدم في حجمها. كانت الجدران مزينة بصور ترمز إلى محافظات العراق الثماني عشرة. انتهت القاعة بشرفة تطل على ساحة الرقص. لم يكن قد سبق لبيبرز الذهـاب إلى قصر فرسـاي، أو باكينغهام، أو حتى قلعة هيرسـت، مما جعل من كلية ويست بوينت العسكرية المرجع الأوحد للمقارنة في مخيلته.

تحـدث الرجل وقد أصابه الذهول، بينما دخل قاعة الرقص، قائلاً: «آه، هي أكبر من قاعة الطعام في ويست بوينت».

تمثلـت وجهتنا اللاحقة في قاعة الاجتماعات التي كانت تعادل ملعبين لكرة السلة فـي حجمهـا. توجه بيبرز بمصباحـه الكاشف، يضـيء الثريا الفاخـرة تلو الأخرى. انتقلنا فيما بعد إلى مسرح القصر، وبركة السباحة الضخمة، وغرفة تبدو كالماخور، ذات سجـاد أحمـر قـانٍ، ومرايا على الجـدران. تم إخلاء معظم الغـرف من الأثاث الأصيل والملفات، ليتمثل كل ما ترك في أطقم أثاث بسيطة. احتوت لوحة معدنية في آخر أحد الأروقة على العبارة الآتية: قصر الشعب.

انتهـى بنا المطـاف بقاعـة رخامية كبيـرة. أمسك بيبـرز عن الحديـث، وأطفأ مصباحـه. كنا قد بلغنا مركز القصر تماماً. كانت القاعة باردة، على وجه التقريب، بالرغـم مـن انعدام التكييف. تمثل كل مـا أمكنني سماعه في أنفاس بيبرز. شعرت وكأننـي في عالم آخر بعيداً عن الحياة في الخارج، بما يتضمن السلب، والاشتباكات المسلحة، والفوضى التي تعم الشوارع.

تجاوزنـا فـي طريقنـا إلى الخارج سـت الغرف التي كانـت تشغلها كتيبـة بيبرز. سألتـه، بالنظـر إلى اتساع المساحات في القصر، عـن السبب وراء حشر الجنود في تلك الغرف، ليجيبني بلا تردد قائلاً:

«نشعـر أن خروجنـا سيكون أسهل، عنـد تسمية حكومة جديـدة، إن شغلنا ما هو أصغر من المساحات. لن نبقى هنا طويلاً».

أعطـى الرئيس جورج بوش الأوامر بالبدء في التخطيط لغـزو العراق بعد مضي بضعـة أشهـر على هجمـات الحادي عشر مـن أيلـول/ سبتمبر. لم يبـدأ البنتاغون تخطيطـه لمرحلـة ما بعد الحرب، بـكل الأحوال، حتى الخريف اللاحـق. أوكلت تلك المهمة لدوغلاس فايـث، معاون وزير الدفاع، الذي ترأس خلية سرية عرفت «بمكتب الخطط الخاصة»، الذي عمل على تضخيم المعلومات المتعلقة بحيازة صدام أسلحة الدمار الشامل، وارتباطه بالقاعدة.

كان فايث نصيراً لأحمد الجلبـي، المنفي العراقي المتقلب، مثير المتاعب، الذي تزعّم المنظمة السياسية المعروفة «بالمؤتمر الوطني العراقي». لم يكن الجلبي -درس الرياضيات في معهد ماساشوسيتس للتقنية، المولع بارتداء البزات الفاخرة- مرغوباً لدى وزارة الخارجية و«السي آي أيه»، حيث رأى فيه المسؤولون شخصاً فاسداً، عديم الشعبيـة في أوسـاط العراقيين. تمثل ما كان المحافظون الجـدد يودون سماعه، مع ذلـك، بالتعاون مع رجلهم فايث، وسيطرتهم على مكتبـه، في كلام الجلبي المعسول عـن إقامة ديموقراطيـة علمانية، تحتضن الغرب وتعتـرف بإسرائيل. أصبح الرجل، من ثمّ مرشح المحافظين الجدد لحكم العراق بعد الإطاحة بصدام.

أحـاط مكتب فايث مخططاته لمرحلـة ما بعد الحرب بسريـة مطلقة. لم يتعاون المكتـب بما يذكر مـع وزارة الخارجية، أو السي آي أيه، أو خبـراء إعادة الإعمار في البنتاغون، ولم يأخذ بعين الاعتبار أسوأ السيناريوهات التي يمكن أن تقلل من التأييد للغـزو. رأى فريـق فايث في المهمة حرباً للتحرير، لا تحتـاج كثيراً من الجهد بعد أن تضع أوزارها. كانوا يفترضـون أن العراقيين سيأخذون على عاتقهم سريعاً مسؤولية إدارة بلدهم، وترميم بنيتهم التحتية.

استدعى فايث جاي غارنر، الجنرال المتقاعد، في 17 كانون الثاني/ يناير 2003، قبل شهرين من وقوع الحرب، مطالبا إياه بتولي المسؤولية عن العراق بعد أن تضع أوزارها. تحدث فايث قائلاً: إن أمد تلك المهمة لن يكون طويلاً - لربما ثلاثة أشهر، لا أكثر، بعد انتهاء الحرب. تنبأ الرجل، لما بعد تلك المرحلة، بتشكيل حكومة عراقية، وإرسال سفير أمريكي إلى بغداد.

لم يمتلك غارنر قامة طويلة، ولكنه كان صلباً، ذا شعر رمادي، يرتدي نظارات معدنية الإطار. اتسم الرجل بحسن الضيافة الجنوبية، علاوة على تلقائية الريف، محيياً الناس بقبضة صلبة، ومودعاً إياهم بمعانقة ودية. تمثل سبب استدعاء فايث غارنر في تولي الأخير -لمرحلة قصيرة في العام 1991، بعد حرب الخليج الثانية- قيادة العملية العسكرية الأمريكية لحماية الأكراد في شمال العراق. كان يعرف العراقيين، ويمتلك الخبرة في تقديم المعونات الإنسانية على التراب العراقي. لم يكن تواقاً للعودة إلى منطقة الحرب -كان يحظى بعمل مربح، وحياة مريحة في أورلاندو، فلوريدة- ولكنه كان جنديا، يلبي نداء وطنه.

لم يحظ غارنر بالطاقم المطلوب، أو الخطط لمهمته المستقبلية، حين توجه إلى البنتاغون في كانون الثاني/ يناير. تمثل أول من استدعاهم لتقديم العون في عدد من صحبه، من الجنرالات المتقاعدين. أُرسِلَ عدد من عسكريي الاحتياط للعمل مع غارنر، بعد مضي بضعة أسابيع، ناهيك عن مجموعة صغيرة من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وحفنة من موظفي الحكومة المدنيين الآخرين. أصرت وزارة الخارجية، علاوة على ما سبق، على إرسال عدد من دبلوماسييها. حظي بعض المنتمين إلى فريق غارنر بمراتب عالية، بينما انتمى آخرون إلى حثالة البيروقراطية الفيدرالية.

ينزع البنتاغون على الدوام إلى اختصار أسماء مؤسساته. أصبحت مجموعة غارنر تعرف «بأو أر إتش أ»، أو مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية. تندر عدد من موظفي المكتب، بعد مضي أسابيع، عبر تسميته بمنظمة الأمريكيين سيئي الطالع. دعا آخرون غارنر وصحبه من الجنرالات المتقاعدين «بالسبيس كاوبويز»، في إشارة إلى أحد أفلام كلينت إيستوود، الذي يغادر فيه أربعة من رواد الفضاء السابقين الأرض، بعد أن بلغ بهم العمر عتياً، في مهمة لإنقاذها من كارثة محققة.

زعم غارنر أنه لم يحصل بالمطلق على أي من الخطط الموضوعة من قبل فايث ومعاونيه. تحدث الرجل، في الحقيقة، قائلاً: إنه لم يعلم بانخراط مكتب فايث في التخطيط لإدارة العراق ما بعد الحرب حتى مضي عشرة أيام من وصوله إلى بغداد، حين غادر معاونه، رونالد آدامز -أحد المنتمين إلى «السبيس كاوبويز»- عائداً إلى واشنطن جراء إصابته بالتهاب رئوي. أمضى آدامز بضعة أيام يعمل في البنتاغون، ليكتشف أن مخطط فايث يتضمن سياسات لاجتثاث البعثيين، وحل الجيش العراقي، وتنصيب الجلبي، وغيره من الموثوقين في المنفى، زعماء وطنيين. اتصل آدامز المرتاب بغارنر، قائلاً: «هل تعلم بوجود قسم كامل للتخطيط هنا، فيما يتعلق بعراق ما بعد الحرب؟».

أجابه غارنر قائلاً: «مستحيل، هل استحدثوه تواً؟».

أجابه آدامز قائلاً: «أعتقد بوجوده منذ مرحلة طويلة».

سأله غارنر قائلاً: «ما الذي يفعلونه؟».

أجابه آدامز قائلاً: «لا أملك أي فكرة. لم يسمحوا لي بالاطلاع على عملهم».

تمثل ما لم يطلع عليه غارنر كذلك، وإن اتسم بقدر أكبر من الفائدة، في مخططات ما بعد الحرب والمذكرات الموضوعة من قبل وزارة الخارجية، والتحليلات الصادرة عن السي آي أيه، والتقرير العلني الموضوع من قبل جامعة الدفاع الوطني، استناداً إلى ورشة عمل لمدة يومين، بمشاركة أكثر من سبعين باحثاً ومختصاً. طالب غارنر فايث بنسخ عن وثائق التخطيط الموضوعة في البنتاغون، وغيره من مؤسسات الحكومة الأمريكية، ليجيبه الأخير، بحسب غارنر، بعدم وجود ما يعود بالنفع منها، وبضرورة تطوير غارنر خططه الخاصة. تمثل ما أمل به فايث -كما أخبر آخرين في البنتاغون- في لجوء غارنر إلى الجلبي وصحبه من المنفيين، في ظل عدم وجود مخطط واضح لعملية التحول السياسي. سيحصل فايث على مبتغاه، من ثَمّ - دون الدخول في صراع مع وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية، اللتين تعدّان الجلبي محتالاً.

عمل غارنر، معصوب العينين، على تقسيم مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية إلى ما دعاه «بالدعامات الثلاث»: المساعدات الإنسانية، وإعادة الإعمار، والإدارة المدنية. عمد الرجل، علاوة على ذلك، إلى تقسيم فريقه لإدارة ثلاث مناطق إدارية، دون مراعاة الحدود بين المحافظات، أو الاهتمام بتأهيل القوات المسلحة. انحصر اهتمام غارنر، بالقدر الأكبر، في التخطيط لمعالجة الأزمة الإنسانية، بالنظر إلى خبرته السابقة في العراق، وسلسلة التحذيرات الخطرة الصادرة عن الأمم المتحدة من أن المرض، والجوع، ونزوح السكان يمكن أن يلقوا بظلالهم على ملايين العراقيين عند وقوع الحرب. مثلت إعادة الإعمار مجال عمل فريق تابع للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. تولى مايكل موبس، شريك فايث القانوني السابق، المهمة المتعلقة بالإدارة المدنية، الدعامة الأكثر أهمية، كما تبين لاحقاً. لم يظهر غارنر كثيراً من الاهتمام، في الحقيقة، بتلك «الدعامة».

بدا غارنر «كأيل تدهمه أضواء العربة، بينما يعبر الطريق»، كما قال تيموثي كارني، السفير المتقاعد الذي طولب بالانضمام إلى مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية من قبل بول وولفويتز، نائب وزير الدفاع. سأل غارنر كارني عن الوظيفة التي يريد، ليعرب الأخير عن استعداده لتبوء منصب محقق المكتب، قبل أن يصرح عن سعي وزارة الخارجية إلى تسميته وزيراً مؤقتاً للصناعة والمعادن. لم يكن لكارني أي خلفية فيما يتعلق بالصناعة أو المعادن، ولكن ذلك لم يكن يؤثر كثيراً لدى المسؤولين البارزين في وزارة الخارجية. كان كارني رجلهم، وقد أرادوا تأمين ما أمكنهم من المواقع البارزة لرجالهم في مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية. أقر غارنر بضرورة تولي كارني مسؤولية وزارة الصناعة والمعادن. اعتزم فريق غارنر التوجه إلى الكويت في غضون يومين، على أن يلحق به كارني، المعوز إلى التدريب والتجهيز قبل البدء في عمله. خاطبه غارنر قائلاً: «نراك في الكويت».

تم التعاقد مع بقية أعضاء المكتب بالسرعة ذاتها. أوكلت مسؤولية وزارة التربية إلى موظف من الدرجة المتوسطة في وزارة الخزانة، بينما تولى حقيبة التجارة سفير سابق آخر، بلا أي خبرة فيما يتعلق بها. طولب ستيفن براونينغ، اختصاصي فيلق

المهندسين في الجيش الأمريكي، بإدارة أربع وزارات منفصلة: النقل والمواصلات، والإسكان والتعمير، والري، والكهرباء، ليتولى المسؤولية عن خامسة، الصحة، بعد أسبوع من سقوط بغداد. تمتع موظفو المكتب بالذكاء، وامتلكوا ما هو حسن من النوايا، ولكنهم افتقروا إلى الخبرة في مهامهم الجديدة، والخلفية فيما يتعلق بالعمل في الشرق الأوسط، ناهيك عن إيكال كثيرٍ من المسؤوليات إليهم. لم يحظَ كارني سوى بمعاون واحد في وزارة الصناعة والمعادن، التي كانت تضم ما يزيد عن مئة ألف موظف.

لم يكن هنالك ما يدعو للقلق في نظر فايث وأعضاء مكتبه. لم تتوافر لديه النية مطلقاً، كما قال اثنان ممن عملوا معه، لتشكيل فرق كبيرة من المختصين الأمريكيين لإدارة الوزارات العراقية. كان يتوقع، ما إن وضعت الحرب أوزارها، أن يعود الموظفون المدنيون العراقيون إلى أعمالهم، وتتولى الوزارات تسيير شؤونها، بعد قيام الحكومة المؤقتة، بقيادة الجلبي كما كان مفترضاً، بتعيين وزراء جدد. تمثل الطرح السائد لدى فايث، بعد ذلك، في نجاح أفضل السيناريوهات.

علق فريق غارنر، بعد وقت قصير، في خضم النزاعات القائمة بين البنتاغون ووزارة الخارجية، التي أفشلت المحاولات، على مر السنين، لصياغة خطة موحدة عن التعامل مع العراق. رغب وزير الخارجية كولن باول، ونائبه ريتشارد آرميتاج، في تأمين ما أمكنهما من المواقع لرجالهما ضمن فريق غارنر. رأى المسؤولان في وجود دبلوماسيين متمرسين ضمن فريق غارنر، ناهيك عن المختصين في شؤون الشرق الأوسط ممن يتقنون العربية، ضمانة لمنع المحاولات الرامية إلى تسليم السلطة إلى الجلبي وصحبه من السياسيين المنفيين. تمثل رأي وزارة الخارجية في ضرورة إشراك عراقيي الداخل في تشكيل حكومة انتقالية. تجسدت وجهة نظر مسؤولي البنتاغون في أن «المستعربين»، من المنتمين إلى المدرسة التقليدية في وزارة الخارجية، كانوا يختلقون الذرائع لتبرير رؤيتهم بعدم نجاح الديموقراطية في العالم العربي. ساد الاعتقاد في البنتاغون بقدرة الجلبي وصحبه على إقامة ديموقراطية علمانية مستقرة. لم يتدخل البيت الأبيض في النزاع بين الطرفين.

لم يمعن وزير الدفاع رمسفيلد النظر في تشكيلة الفريق الذي كونه فايث وغارنر، إلا قبل يومين من مغادرة الأخير إلى الكويت. استدعى رمسفيلد غارنر في اليوم الثاني، ليبدأ النقاش باعتذار، بحسب غارنر، قائلاً:

«جاي، لم أوجه كثيراً من الاهتمام إليك. تعين علي منحك المزيد من وقتي».

واصل الرجل حديثه، فيما بعد، ليبحث في مؤهلات عدد من كبار موظفي مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، المنتمين إلى وزارة الخارجية على وجه الخصوص. تحدث رمسفيلد قائلاً: «لا أشعر بالارتياح إزاءهم»، ليعقب غارنر قائلاً: «آه، فات الأوان لقول ذلك. سأغادر غداً».

عقب رمسفيلد قائلاً: «سآتيك بأشخاص جدد».

عقب غارنر قائلاً: «لا تملك الوقت للقيام بذلك».

طالب رمسفيلد غارنر، بعد مزيد من الأخذ والرد، بمراجعة لائحة موظفيه، والإشارة إلى من «يتعين عليه الاحتفاظ بهم بالتأكيد».

تحدث غارنر قائلاً: «قل لي بالمناسبة، من هو المؤهل لتولي حقيبة الزراعة؟». لم ينبس رمسفيلد ببنت شفة، ليردف غارنر قائلاً: «ماذا عن التربية؟»، قبل أن يراجع اللائحة بأكملها، ويضيف قائلاً: «ماذا عن المالية؟، من يستطيع تولي أمرها؟». عقب رمسفيلد، في نهاية المطاف، قائلاً: «انظر، لا أريد الجدل معك بهذا الشأن. سآتيك بأناس أفضل».

أوقف رمسفيلد -ما إن غادر غارنر- تعيين موظفي وزارة الخارجية البارزين في مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، بحجة «تدني مستواهم الوظيفي، وبيروقراطيتهم». لم يتراجع الرجل إلا حين اتصل به باول، مهدداً بسحب موظفي وزارة الخارجية جميعاً من المكتب، مما سيشكل، بلا أدنى شك، عنواناً عريضاً في الصفحات الأولى للجرائد. رغب البنتاغون في تقليص عدد موظفي الخارجية في فريق غارنر قدر الإمكان، دون أن يسبب ذلك حرجاً على صعيد العلاقات العامة.

أعلم فريق غارنر الأولي، عند وصوله الكويت في أوائل آذار/ مارس، بعدم وجود مكان مناسب لمكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية في أي من القواعد العسكرية الموجودة هناك. تعين على أعضائه البحث عن مكان لإقامتهم، ليستقروا في أحد فنادق الهيلتون، الذي وفر مجموعة من الفيلات الفخمة لغارنر، ومئة وثمانية وستين موظفاً آخر في المكتب، عند وصولهم الكويت لاحقاً، عشية وقوع الحرب. أمضت المجموعة ما يقارب ستة الأسابيع، تستهلك ما لذ وطاب من المأكل والمشرب، بينما عكفت على وضع خطط لإيصال حصص الطعام ومياه الشرب إلى المدنيين العراقيين. احتوت فيلات الهيلتون بيضاء اللون، وذات الطابقين، على ما هو وثير من الفرش، وشاشات التلفاز المسطحة، ومساكن للخدم، وشرفات مطلة على الخليج، يداعبها النسيم العليل على الدوام.

اعتاد أفراد المجموعة الالتقاء لوقت طويل من كل صباح. اتسمت معظم اجتماعاتهم، مع ذلك، بالعبثية، مفتقرة إلى الدقة. تمحورت العديد من الجلسات حول التخطيط لتوزيع الطعام والمياه على العراقيين، بالنظر إلى الافتراض السائد بوقوع العراق في أزمة إنسانية بعد انتهاء الحرب. عمل غارنر كذلك على دراسة كيفية التعامل مع الاحتمالات كافة. افترض أحدها تكدس شوارع بغداد بالجثث، ناهيك عن انقطاع الكهرباء، واحتراق مناطق كاملة من المدينة. لم تخلُ تلك السيناريوهات من المبالغة في نظر بعض من أعضاء الفريق، ولكنهم بحثوا في كيفية التعاطي معها. لم يكن الافتقار إلى ما يكفي من موظفين أو تجهيزات بخافٍ عليهم، ولكنهم افترضوا قيام الوحدات العسكرية بتأمين ما يلزمهم من نقل، واتصالات، وغير ذلك من المساعدات الضرورية.

امتلك غارنر، في الحقيقة، خطة، وقد دعاها «بالمهمة الموحدة في عراق ما بعد الحرب». لم يكن يحق الاطلاع عليها إلا للمخولين من الأمريكيين وأعضاء الحكومات المشاركة في «تحالف بوش للراغبين». تم العمل على المسودة الثانية من الوثيقة، مع وصول غارنر إلى الكويت، ليبلغ عدد صفحاتها الخمس والعشرين، مستهلة بمقدمة وضعها غارنر من صفحة واحدة. اتسمت الجملة الأولى بالابتذال، وإن حاول الرجل

استشراف المستقبل عبرها: «لن يحكم التاريخ على حرب العراق استناداً إلى براعة تنفيذها من الناحية العسكرية، بل فاعلية ما يعقبها من أنشطة».

حذر البند الأول من البقاء طويلاً في العراق، بينما مضت الوثيقة في التنبيه من احتمالات وقوع حرب أهلية، مشيرة إلى أن «المهمة العسكرية ذات الأولوية القصوى تتمثل في توفير ما هو آمن من المناخات». ساد الإبهام، بكل الأحوال، فقرات رئيسة من أحد أهم بنود الوثيقة. افتقر البند الثامن - دعامة الإدارة المدنية - إلى التعريف بمهمتها، ونمط عملياتها، وغاياتها الرئيسة، وحدودها الزمنية. استمر ذلك الغموض على حاله إلى ما قبل إطاحة تمثال صدام بمرحلة قصيرة.

أوكلت مسؤولية وضع الخطط المتعلقة بالإدارة المدنية إلى موبس، شريك فايث القانوني السابق، ومسؤول مراقبة التسلح السابق في إدارة ريغان. أمضى موبس أشهراً في البنتاغون يعمل على وضع إستراتيجيات لمكافحة حرائق آبار النفط التي يمكن أن يشعلها العراقيون، كما كان متوقعاً، حال هجوم القوات الأمريكية. لم تكن لديه خبرة سابقة فيما يتعلق بالشرق الأوسط، أو العمل مع المنفيين العراقيين، أو التعاطي مع ما يلي الحروب من عمليات لإعادة الإعمار. فقد الرجل سريعاً ثقة كارني، وغيره من موظفي وزارة الخارجية، المنضوين تحت لواء «دعامته». كان يدعو أعضاء فريقه إلى الاجتماع صباحاً، أثناء وجودهم في الكويت، قبل أن يختفي عن الأنظار. تحدث أحد السفراء السابقين عن الرجل، قائلاً: «لم يكن من القادة، ولم يدرِ ما يتعين عليه فعله، منزوياً في غرفته معظم الوقت». أخذت مجموعة وزارة الخارجية تتندر عبر القول بعجز موبس عن تنظيم أبسط الجنازات. أرسل غارنر الرجل إلى واشنطن بعد أسبوع من وصول الفريق إلى بغداد.

كان دايفيد دنفورد، السفير المتقاعد المسؤول عن وزارة الخارجية، أحد المحظوظين القلائل بتلقي رسالة توضيحية قبل استلام عمله. تمثلت في مذكرة من أربع صفحات عن الوزارة، بدت لدنفورد وكأنها كتبت من قبل أحد موظفي وزارة الخارجية الأمريكية من الخريجين الجدد. عمد الرجل -بعد أن أهملت طلباته للحصول على المزيد من المعلومات من وزارة الخارجية- إلى طلب العون عبر وضع

إعلان كئيب في أحد مواقع الإنترنت المطروقة من قبل المختصين في شؤون الشرق الأوسط. تمثلت خلاصة الإعلان، بحسب دنفورد، في الآتي: «هأنذا، ولا أملك أي فكرة عما يتعين علي فعله».

أمضى كارني أمسياته في الكويت يتصفح الإنترنت، على حد سواء، جراء افتقاره إلى أي من المعلومات عن وزارة الصناعة والمعادن. لم يعثر الرجل على ما يذكر، باستثناء سيرة حياة الوزير العراقي المسؤول عنها في السابق. لم تكن لديه فكرة عن عدد عمالها، أو مصانعها، أو شركاتها المدارة من قبل الدولة. بدأ كارني البحث في الإنترنت عن الكتب، ليطلب ما ترجم من أعمال للمتنبي، أشهر شعراء العراق، ويستلمها، بما يثير الدهشة، قبل مغادرته إلى بغداد. تمثل أكثر ما أعجبه من أبياتها في الآتي: «**إذا رأيت نيوب الليث بارزة، فلا تظنن أن الليث يبتسم**».

استمتع الرجل بما قرأه من شعر المتنبي، ولكنه عجز عن الحصول على مجموعة محددة من الوثائق التي أرادها بشدة: التقارير المتعلقة «بمشروع مستقبل العراق».

مثل مشروع مستقبل العراق، بحسب المطلعين على مخططات الحكومة الأمريكية لما بعد الحرب -بما يشمل التقارير السرية الصادرة عن السي آي أيه، ومكتب الخطط الخاصة- أفضل محاولات واشنطن للتهيئة لحقبة ما بعد صدام. عمد المشروع، المدار من قبل مسؤول من الدرجة المتوسطة في وزارة الخارجية، إلى تنظيم أكثر من مئتين من المنفيين العراقيين في سبع عشرة مجموعة عمل مختلفة، لدراسة المسائل ذات الأهمية القصوى في مرحلة ما بعد الحرب، بما يتضمن ترميم البنية التحتية المدمرة، وإيجاد إعلام حر، وحماية الآثار، وإدارة القضاء أثناء المرحلة الانتقالية، وتطوير الاقتصاد المدمر، وإقامة حكم ديموقراطي، بما يعد الأكثر أهمية. أصدرت مجموعات العمل ما يقارب ألفين وخمس مئة صفحة من التقارير والتوصيات السياسية. مثل المشروع، بالرغم من مثالبه كافة -افتقاره، على سبيل المثال، إلى خطة عملية لتشكيل حكومة عراقية جديدة- أكثر المبادرات طموحاً لتسليط الضوء على ما ينبغي عمله بعد التحرير.

أوكلت مهمة تنظيم المشروع إلى توماس ووريك، المحامي الدولي الذي ترك العمل الخاص المربح، قبل خمس سنوات من حينه، للعمل على جرائم الحرب في وزارة الخارجية. انكب الرجل -من ثمّ- على متابعة ملف صدام في هذا الشأن، والتعامل، في نهاية المطاف، مع المعارضة العراقية. اعتاد ووريك التحدث بسرعة، وبدا على الدوام كمن يعمل في خضم الأزمات. اتسم الرجل بالبدانة والقصر بما ينسجم مع من يمضي كثيراً من الوقت في مكتبه. اتفق مؤيدو ووريك ومنتقدوه الكُثُر على تمتعه بالذكاء الحاد، واستبداديته، مختلفين فيما كان يطغى عليه منهما بصورة أكبر.

سمع غارنر للمرة الأولى بمشروع مستقبل العراق في الحادي والعشرين من شباط/ فبراير -بعد شهر ونيف من تولي مهمته- إبَّان اجتماع تمهيدي دعا إليه في جامعة الدفاع الوطني في واشنطن. علم الرجل بوجود من يخططون في الحكومة لعراق ما بعد الحرب، وقد رغب في الاستفادة منهم. ذهل غارنر، عندما دخل قاعة المؤتمرات، لوجود ما يزيد عن المئة من الحاضرين. استرعى انتباهه رجل في الصف الأول، بينما كان الاجتماع جارياً، ما انفك يوجه الأسئلة ويصدر التعليقات. شعر غارنر بالانزعاج في بادئ الأمر، ولكنه أدرك، مع استمرار الجلسة، أن الرجل مصيب في أسئلته وتعليقاته، ليتوجه صوبه أثناء الاستراحة.

خاطبه غارنر قائلاً: «يبدو أنك تعلم كثيراً عن الموضوع».

عقب الرجل قائلاً: «أدرُسه منذ عام ونصف».

سأله غارنر قائلاً: «أما زلت تفعل حتى الآن؟ ما اسمك؟».

أجابه الرجل قائلاً: «توم ووريك».

سأله غارنر قائلاً: «لمن تعمل؟».

أجابه ووريك قائلاً: «وزارة الخارجية».

عقب غارنر قائلاً: «حسناً، لا يجدر بك الجلوس هنا، بل العمل لحسابي».

انضم ووريك إلى فريق غارنر في غضون يومين. تحدث رمسفيلد إلى الأخير، بعد مضي أسبوع، قائلاً:

«مرحباً جاي، هل يوجد في منظمتك من يدعى ووريك؟». أجاب غارنر بالإيجاب، ليطالبه رمسفيلد باستبعاد ووريك من مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية.

سأله غارنر قائلاً: «لم؟. قد لا يكون ووريك سهل المراس، ولكنه الأذكى على الأرجح من بين العاملين لدي».

عقب رمسفيلد قائلاً: «انظر، جاءني الطلب ممن يفوقني مرتبة. لا يمكنني التغاضي عنه. يتعين عليك تنفيذ ما أطلب».

أعلم غارنر لاحقاً، بحسب ما روى، أن ديك تشيني اعترض على انضمام ووريك إلى المكتب. تمثل السبب وراء ذلك، كما العديد من القرارات الخاطئة المتخذة قبل وقوع الحرب في أحمد الجلبي. ارتأى ووريك في الجلبي انتهازياً متملقاً، لا يؤمن بالديموقراطية ما لم تحقق غاياته الخاصة. أراد مكتب نائب الرئيس الجلبي قائداً للعراق المحرر، وقد مثل ووريك تهديداً لرجله.

طلب غارنر من أحد معاونيه، بعيد مغادرته مكتب رمسفيلد، إعلام ووريك بضرورة عودته إلى وزارة الخارجية. لم يتسنَ لغارنر، مع رحيل ووريك، الاطلاع على أيٍّ من التقارير المتعلقة بمشروع مستقبل العراق.

المنطقة الخضراء، المشهد الأول

خاطبني الملازم بيبرز -ما إن غادرت القصر الجمهوري- قائلاً: «هل تود رؤية الحيوانات؟».

استقللنا عربة الهمفي إلى قصر مجاور، كنا نتحرك بمحاذاة نهر دجلة، حيث انخرطت كتيبة بيبرز، قبل يومين لا أكثر، في قتال جنود من حرس صدام الجمهوري الخاص. تقدمنا بيبرز، عند وصولنا، عبر طريق عشبي يؤدي إلى حظيرة مسيَّجة. تحدث الرجل قائلاً: «لنرَ ما لدينا، سبعة أسود، وفهدين، ودب بني». لم تكن الأسود الجميلة قد أتمت نموها بعد (سمعت قبل الحرب أن عديًّا -ولد صدام الأكبر- اعتاد قيادة سيارته الرولز رويس، متجولاً في أنحاء بغداد، بينما يضع أشبال الأسود في حجره). استلقى الدب في الظل. تجاوزت درجة الحرارة الثلاثين مئوية، وقد كنا في شهر نيسان/ أبريل من العام لا أكثر. تساءلت عن كيفية بقائه حياً في خضم الصيف القائظ. لم ألمح الفهدين أمامي، لأسأل بيبرز عنهما. عجز الرجل عن رؤيتهما على حد سواء. التقط جهاز اللاسلكي خاصته، مخاطباً رجاله في عربة الهمفي: «تهيَّؤُوا بأسلحتكم. لدينا فهدان هاربان».

تجمع عدد من الجنود حول أسود عديٍّ، مهيئين ما يحملونه من بنادق «الإم 16» للاستخدام. لمحنا الفهدين المطلوبين، فيما بعد، يخرجان من كوخ صغير في الحظيرة. شعر الجميع بالارتياح، متبسمين، قبل أن يخفض الجنود بنادقهم.

بدت الحيوانات تحتضر -حين سيطر الجنود على القصر- من شدة الجوع والعطش. كان المسؤولون عن إطعامها قد لاذوا بالفرار. أحضر الجنود الماء للحيوانات، ولكنهم جهلوا ما يفعلون بشأن الطعام. عثر أحد الرقباء، فيما بعد على عدد من الخراف داخل الحظيرة، قبل أن يلقي بأحدها إلى الحيوانات، مؤذناً بحلول وقت الطعام.

بـدأت الخراف، بكل الأحوال، فـي النفاد. دار الحديث فيمـا بيننا -من ثمّ- عن اتفاقيـة جنيف. ما الالتـزام المفروض على قوة احتلال عسكريـة تجاه مجموعة من الحيوانـات؟، لم يعلم أحد الإجابة. لم يرغب بيبرز فـي أن تتضور الحيوانات جوعاً. قـرر إطعامهـا من المـؤن العسكرية بضعة أيـام، قبل أن تأتي النجـدة. كان قد سمع بقدوم مئات من الموظفين المدنيين الأمريكيين لإدارة البلاد.

تحدث، بذلك الصدد، قائلاً: «سيملكون الإجابات اللازمة».